الأهرام
مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: المصور
التاريخ: ١٩٧٥/١١/٢١

المسيرة الطويلة
من
الهزيمة إلى النصر

بقلم: صبرى أبو المجد

خمس سنوات مع "السادات"

الرجل الذى أحال هزائمنا إلى انتصارات

الديمقراطية

● لماذا اطيل الحديث فى هذه الدراسة المتواضعة عن الديمقراطية بصفة عامة وحرية الصحافة بصفة خاصة ؟ سؤال وجهته الى نفسى وانا افكر فى هذه الحلقة ولم اكن بحاجة الى جهد ما لكى ارد على هذا السؤال اذ الواقع اننى ارى - وكثيرون يرون مثل ما ارى - ان الديمقراطية التى تحققت فى السنوات الخمس الاخيرة بصورة لم تحدث من قبل هى الاساس فى كل ماحققنا من انتصارات عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، وبدون تلك الديمقراطية لم نكن فيما أعتقد ويعتقد الكثيرون بقادرين على أن نحقق اى نصر ما فى اى ميدان ما . ان الديمقراطيه الحقيقية هى حجر الزاوية فى بناء اية دولة ما وهى الحصن الحصين الذى يقى اى شعب من الشعوب من الوقوع فى مساوىء الديكتاتورية التى

تقود حتما الى الهزائم المرة ، والديمقراطية فيما نرى ويرى الكثيرون ليست شعارا يرفع او كلمة حلوة تقال ولا تنفذ او امنية يسعى الكثيرون لتحقيقها دون ان تتوافر لديهم الرغبة الحارة فى تحقيقها ، وانما الديمقراطية ممارسة ، وفى كل حالات تلك الممارسة تحدث اخطاء كثيرة ، والمؤمنون حقيقة بالديمقراطية هم اولئك الذين لاتوقفهم تلك الاخطاء مهما كانت خطيرة وجسيمة عن الاستمرار فى التجربة ، تلك التجربة التى تتكلف الكثير من الجهد ومن الصبر ومن التضحيات وفى عالمنا العربى اصوات عديدة ترتفع منادية بالديمقراطية ، ومقالات عديدة تكتب دائما عن الديمقراطية واذاعات يومية تتحدث عن الديمقراطية ، ولكن الديمقراطية عندهم هى ديمقراطيتهم وحدهم دون سواهم .. الديمقراطية لهم ولانصارهم وازلامهم . اما الديمقراطية بالنسبة لمن يختلفون معهم فى الراى فلا وجود لها على الاطلاق فى قاموسهم السياسى .. انهم يتشبثون بالديمقراطية عندما يكونون خارج الحكم .. ينادون بها ، يصرون عليها ، يتشدقون بها وبمحاسنها فاذا ماوصلوا الى الحكم اصبحت الديمقراطية شيئا لا وجود له فى دنياهم ، واصبحت الدكتاتورية ضرورة حتمية بالنسبة لغيرهم ، واولئك الذين يرون هذا الراى بالنسبة للديمقراطية هم - بلا جدال - انانيون بطبعهم وهم فى نفس الوقت غير واثقين من انفسهم

وانعدام الديمقراطية فى مصر بلا جدال كان من الاسباب التى ادت الى نكبتنا فى عام ١٩٦٧ ، ونقول من الاسباب التى ادت الى تلك النكبة ولا نقول كل الاسباب لاننا نؤمن ان هناك عوامل اخرى داخلية وخارجية قد ساهمت فى صنع تلك الهزيمة .

وانعدام الديمقراطية اليوم فى بعض البلدان العربية من الاسباب ، التى جعلت هذه البلدان تعيش محنا قاسية وعنيفة فلا يسمح لاى رأى مخالف - حتى ولو كان داخل التنظيم الحاكم - بان يرى النور ، عندما ننتقل مثلا الى سورية نتساءل حقيقة : اين هى الديمقراطية فى سورية ؟ اى راى مخالف للحزب الحاكم سمح بنشره حتى ولو كان ذلك النشر فى اضيق الحدود ، بل اين هى الديمقراطية داخل الحزب الحاكم نفسه .. اننا نجد فى اعقاب كل مؤتمر قومى او قطرى اعتقالات عديدة لاصحاب الراى المخالف ، هذه الاعتقالات لاتتناول كوادر الحزب وانما تتناول قياداته ولعل سجن المزة - وغيره من السجون الحديثة فى سورية الشقيقة ملىء الان برؤساء جمهوريات ورؤساء وزارات ، ووزراء وامناء عامين ومساعدين سابقين ، للقيادتين القومية والقطرية لحزب البعث

الحاكم ، وربما كان فى مقدمة الاسباب التى جعلت القيادة الحاكمة فى سورية اليوم تحقد على نظام الحكم فى مصر ، وتقف كل جهودها لمحاربته هو انه قد حقق الديمقراطية الكاملة التى يمكن ان تسرى عدواها الى سورية الحبيبة فيما لو استمرت العلاقات الطيبة قائمة بين البلدين الشقيقين .

والذى لاشك فيه ان حرية الصحافة هى المولود الشرعى للديمقراطية والديمقراطية لايمكن ان تكون ديمقراطية حقيقية الا مع وجود حرية الصحافة والذى لاشك فيه ايضا كما سبق ان ذكرنا ان حرية الصحافة فى اى بلد من بلدان العالم هى الرئة الاخرى التى يتنفس منها الشعب . اما الرئة الاولى فهى المجلس النيابى المنتخب انتخابا حرا نزيها خالصا من شوائب التدخل الحكومى او التدخل الحزبى عندما يكون الحزب هو كل شىء فى الدولة .

وقد قلت ـ فى الاسبوع الماضى ـ ان مصر اذ تفخر بما حققته فى عهد الرئيس انور السادات من انجازات سياسية واقتصادية واجتماعية فانها تفخر فى نفس الوقت بصحافتها الحرة . ان اى كاتب او صحفى او مفكر فى مصر يعبر عن رايه بوضوح وصراحة وفى حرية كاملة دون ضغط من احد او دون توجيه من هذه الجهة او تلك ولكى اكون كمهدى بالقارىء دائما صريحا وواضحا اقول ان اى كاتب او صحفى لم يتأثر فى مركزه الصحفى بسبب مايبديه من راى مخالف واقول ان بعض الاراء التى تنشر فى بعض صحفنا ليست دائما موضع رضاء الرئيس محمد انور السادات غير ان الرجل الصحفى والكاتب المؤمن بحرية الصحافة يرى ضرورة الاستمرار فى التجربة مهما ظهر فى اثناء ممارسة التجربة من اخطاء .

فى ورقة اكتوبر التى قدمها الرئيس انور السادات للشعب فى ابريل ١٩٧٤ والتى وافق عليها شعبنا ـ فى استفتاء حر ـ بالاجماع حرص الرئيس السادات على ان يركز على هذه الكلمات فى ختام تلك الورقة : « نحن نعلم ان الديمقراطية ليست مجرد نصوص ، ولكنها ممارسة عملية ويومية ، والديمقراطية لاتمارس فى فراغ بل لابد من اطارات تتحدد من خلالها الاتجاهات التى تخص امور الوطن السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولقد ارتضى الشعب نظام تحالف قوى الشعب العامل اطارا لحياته السياسية واننا فى معركة البناء والتقدم لاحوج مانكون لهذا التجمع ومن ثم فاننى ارفض الدعوة الى تفتيت الوحدة الوطنية بشكل مصطنع عن طريق تكوين الاحزاب ، ولكنى ايضا لااقبل نظرية الحزب الواحد الذى يفرض وصايته على الجماهير ويصادر حرية الراى ويحرم الشعب عمليا من ممارسة حريته السياسية . ولهذا فاننى حريص على ان يكون التحالف اطارا صحيحا للوحدة الوطنية تعبر من داخله كل قوى التحالف عن مصالحها المشروعة وعن ادائها

بحيث تتضح الاتجاهات التى تحظى بتاييد الاغلبية والتى يجب ان تتبناها الدولة . ان التنظيم السياسى يجب أن يكون بؤرة للحوار تنصهر فيها الافكار المتعارضة وتتبلور الاتجاهات التى تعبر بحق عما تريده القاعدة الشعبية العريضة .. ان حرب اكتوبر وماظهر فيها من بطولات وماتاكد فيها من معان ومابرز اثناءها من قيادات شابة يجب ان تعكس روحها على بنيان التنظيم السياسى وحركته ، ورغم وضوح الافكار التى اعلنها الرئيس انور السادات فى تلك الكلمات ـ التى تعتبر بحق دستور عمل ديمقراطى مثالى ـ فان بعضنا فى الصحف قد دعا الى تاليف احزاب جديدة ، كما ان البعض الاخر قد حاول هدم نظرية التحالف من اساسها ، البعض الاخر نادى بتشكيل حزب واحد مما يتناقض اساسا مع ورقة اكتوبر التى اجمع عليها الشعب ومع ذلك فان أحدا لم يطلب من صحافتنا ان تكف عن الدعوة الى الاحزاب ، او الدعوة الى الحزب الواحد ، بل وجد الكاتبون من اصحاب الراى المخالف ، او الارادة المخالفة لورقة اكتوبر تشجيعا للاستمرار فى ابداء ارائهم بحرية دون اى قيد ، وكذلك فيما يتعلق بورقة تطوير الاتحاد الاشتراكى وفيما يتعلق بانشاء المنابر .. كل واحد ابدى رايه فى حرية كاملة لان كل واحد آمن على نفسه ، ورايه ، وذلك فى راينا قمة الديمقراطية وقمة الحرية الصحفية .

والعجيب بل والمريب ايضا ان البعض هاجمنا فى بيروت وفى دمشق بسبب تطبيق الديمقراطية وبسبب تحقيق حرية الصحافة ، وكان اولئك الذين هاجمونا من اجل ذلك ممن ظلوا سنوات طويلة يتشدقون بالدعوة للديمقراطية وبمن ظلوا سنوات عديدة يحملون لواء حرية الصحافة . وقد كنا كصحفيين نقرأ تلك المقالات « النارية » التى تنتقد الديمقراطية فى مصر ، وتنتقد ممارسة حرية الصحافة فى مصر فننزعج لاننا لم نكن نتصور ابدا ان يهاجم بلد ما لانه طبق الديمقراطية على الجميع ، ولم نتصور ابدا ان يهاجم نظام حكم ما لانه اعطى الحرية الكاملة للمحافظة : لمن يؤيده ، ولمن يختلف واياه ، وقد ذكرتنا تلك الحملات ببعض المظاهرات التى كان يطلقها يوما ما فى مصر ـ قبل ثورة ١٩٥٢ بعض السياسيين ضد من يختلف واياهم فى الراى قائلين : «يسقط فلان النزيه» كما ذكرتنا تلك الحملات الهوجاء ببعض الهتافات التى انطلقت فى دمشق العبيبة اثر الانفصال الذى وقع فى سبتمبر « ايلول » ١٩٦١ تنادى بسقوط « الوحدة الرائدة » وكم كنت اود ان انقل هنا بعض فقرات من تلك المقالات التى هوجمت فيها الديمقراطية فى مصر ، غير اننى آثرت فى النهاية الا افعل ذلك حتى لا اوذى مشاعر القراء ، على اننا اذا كنا كصحفيين ننزعج للوهلة الاولى

عندما نقرا المقالات التى تهاجم الديمقراطية وحرية الصحافة فى مصر الا ان انزعاجنا لم يكن يستمر طويلا عندما نجد ان كتاب تلك المقالات هم من اولئك الذين تخصصوا دائما فى الهجوم على مصر ، وهم الذين يستخدمون دوما لمحاولة الانتقاص من قدر مصر ، وهم الذين كانت احلامهم تنحصر فى ان تظل مصر تعيش فى ظلال هزيمة يونية ١٩٦٧ لعل بقاءها فى تلك الظلال الكئيبة يجعلها تتخلى عن قيادة العالم العربى وزعامته . ولعل الذى كان يزعجنا اكثر واكثر - ونقول هذا من قبيل النقد والنقد الذاتى - ان بعض الاقلام التى تنسب الى مصر كانت تشارك فى تلك الحملات رغم انهم لم يتنفسوا ، ولم يشعروا بكرامتهم الا فى ذلك العهد الذى جاءهم الثراء لانهم تخصصوا فى الهجوم عليه

على ان الشىء الجدير بالذكر ان الاخطاء التى ارتكبت اثناء ممارسة الديمقراطية - وهى فى بعض الحالات - كانت اخطاء فاحشة لم تمنع التجربة الديمقراطية من ان تزداد بمرور الايام قوة ورسوخا ، كما ان الاخطاء التى ارتكبت اثناء ممارسة حرية الصحافة - وهى فى بعض الحالات ايضا ، كانت اخطاء فاحشة لم تحل دون الاستمرار فى التجربة بل على العكس لقد جعلت الشعب يزداد ايمانا بها وينادى بالمزيد منها ، واقول من منطلق الايمان والصدق ان انور السادات شخصيا كان طوال السنوات الخمس الماضية الحارس الوحيد للديموقراطية وذلك لان انور السادات يؤمن الى ابعد الحدود بتلك الديمقراطية ويرى على ضوء التجارب الماضية اننا وقعنا فى كثير من الاخطاء بسبب غياب تلك الديمقراطية ، وايمان الرئيس السادات بالديمقراطية - كما يقول السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء - اصيل وعميق ، فهو يرفض ان يجعل الديمقراطية منحة من الحاكم يمنعها او يمنحها وقتما يريد ، وتتجلى ديمقراطية الرئيس انور السادات فى الاسلوب الذى يتبعه اثناء المناقشات التى يحضرها سواء فى الاجهزة السياسية او الاجهزة التنفيذية ، انه يحرص دائما على الاستماع الى كل راى او فكر ، وهو لايسمح بالاراء المعارضة فقط ، ولكنه يرحب بها . ولعلى لا اذيع سرا عندما اقول ان الرئيس انور السادات هو الذى طلب رفع الرقابة عن الصحف برغم ظروف العدوان ، مؤكدا ثقته الكاملة بوعى الصحافة العربية بمسئوليات المرحلة التى نعيشها ولعل من اقوى البواعث وراء ثورة التصحيح التى قادها الرئيس السادات فى ١٥ مايو هى غيرته على حرية الانسان وكرامته ، وكانت اول التوجيهات التى اصدرها لاجهزة الامن هى تحريم استراق السمع ، او تسجيل المحادثات التليفونية . او التقاط صور الاشخاص فى الاماكن الخاصة ، واكثر من ذلك فقد اشار الرئيس بالالتزام بهذه التوجيهات حتى مع الاشخاص الذين قدموا للمحاكمة وقتئذ ، وألا نستخدم المسائل الشخصية -

للتشهير بهم وأن تحرق شرائط المحادثات التليفونية المسجلة وشهد بنفسه عملية حرقها بوزارة الداخلية »

واعود الى بعض المبادىء الديمقراطية التى أرسى الرئيس السادات قواعدها خلال السنوات الخمس الماضية

● ان الحوار الحر والجاد بين المؤسسات السياسية والدستورية والتنفيذية هو طريق صنع القرار الصحيح الذى تتعدد مراكز اصداره منعا للتركيز على القمة وبالتالى التعويق من القمة .

● ان الانسان هو الوطن تبدا الديمقراطية عنده وتكون الاشتراكية لمصلحته وتعمل الدولة لخدمته ويصدر القرار للارتقاء بحياته يوما بعد يوم

● ان الانسان هو الحياة بكل مايعنيه وصف الحياة من حس ونبض وامن وطمانينة من احتياجات وآمال ، ذلك هو المعيار الاكثر صدقا ، والاظهر حقا حتى لا نخطىء ولا نضل على الطريق .

● ان الحكم اذا كان اختيارا فان الاختيار لايمكن الا ان يكون مناقشة حرة مفتوحة ، تبغى وجه الحق والحقيقة معا .

● كنا بين امرين ، اما ان نقفل علينا الابواب ، و « نداري » او ان نفتح الابواب و « نمارس » وكان رايى ان نمارس ولم اغير رايى فى ان الحرية هى السبيل الى المشاركة الشعبية كاوسع ماتكون المشاركة ثم ان الضمان الحقيقى للحرية هو المزيد من الحرية .

● ان من دواعى اعتزازى اننى سعيت واسعى دائما الى ان تكون السلطة فى وطننا لدولة المؤسسات تمثل قوى الشعب العاملة وتعبر عن ارادته

● لن نسمح لاحد ان ينال من المؤسسات ولا من سيادة القانون ولا من الحريات ولا يتصور احد انه يتخذ من هذا السبيل الى التآمر على البلد لا فى الحرب ولا فى السلم .

● لن نسمح باى تناقض داخل المؤسسات او بين المؤسسات وبعضها او بين المؤسسات وبين قواعدنا الشعبية كلها

● اومن بانه لا جدوى للقمة العيش اذا فقد الانسان اهم مايميزه وهو الحرية السياسية .

● المبادىء الاساسية لاتتغير بتغير الظروف والا لما كانت ترقى لمستوى المبادىء وانما الذى يجب ان يتغير هو التطبيق وهذا مانحن بصدده .

صبرى أبو المجد